ببحث اثريّ عن جامع بني اميّة في دمشق ونحن نتمنّى ان يطلعنا قريباً عن كل هذه الدفائن الثمينة

وكنّا قبل ختام هذه المقالة نودّ ان نفيد القرّاء علماً عن اكتشافات ارباب البعثة الالمانية الذين تولّوا الحفر في بعلبكّ واعادوا الى هذه الآثار قسماً من رونقها القديم ولكن توقّفنا عن ذلك ليكون الفضل السابق في نشرها لاصحابها فاذا ما نُشرت اسرعنا الى تدوين خلاصتها

فترى من هذا النظر العموميّ انّ بلادنا ميدان تجري فيهِ العلماء كجياد يتسابقون باكتشافاتهم الى ذروة المجد ويسرُّنا ان نرى مواطنينا ينهجون ايضاً نهجهم ليجاروهم في هذا السباق الجليل

الدليلُ المبين

في ائمّة اللغة من الاقدمين والمُحدثين

لحضرة اللغويّ النقّاد والكاتب العالم والباحث المتفنّن الاب انستاس الكرملي

ادرج حضرة الاستاذ الفاضل سعيد افندي الشرتوني مقالة في مجلّة المقتطف ترجمها « الدقائق العربيّة » (المقتطف ٢٥ : ١٠٥ الخ) واستشهد لتأييد بعض تلك الدقائق بكلام بعض المولّدين والمحدثين وافاد بها كثيرين . ثم سأل على اثر ذلك احد قرّاء تلك المجلّة (٢٥ : ٢٦٨) سؤالًا لم يُجب عليهِ احدٌ الى الآن وهو هذا ندرجهُ بنصهِ الحرفيّ ليطّلع القارئ عليهِ . قال :

« اطّلعت على ما كتبهُ الاستاذ الشرتوني في الدقائق العربية وكنتُ كلّما قرأتُ دقيقة منها ورأيت شواهدها اقول في نفسي تُرى هل يجوز ان نأخذ بآخذ بعض الكتاب النابغين من المحدثين ونحذو حذوهم في ما خالفوا بهِ المتقدمين ؟ — وان كان ذلك غير جائز ما دام الكاتب منهم في قيد الحياة ولا اذا مرّ عليهِ قرنٌ او قرنانِ فكم هي السنون الشرعية التي يجب ان تمرّ حتّى يصير قول الكاتب حجّةً يؤخذ بها كقول الاشمونيّ مثلًا في « عوض عن حرف » او حتّى يصير كلام من كان مثل الجبرتيّ حجّةً مثل كلام ابن الاثير من حيث اللغة . واني اطرح هذا السؤال على حضرة الاستاذ الشرتونيّ ومن حذا حذوهُ من علماء اللغة عسى ان يتوسّعوا فيهِ ويدلُّونا على الحدّ

الذي نقف عندهُ الآن في الاعتماد على الكُتَّاب الاقدمين ويضعوا لنا قاعدةً نعرف بها مقدار السنين التي يرجع فيها في المستقبل الى ما مضى من هذا القبيل فنعلم منها عدد السنين التي يجب ان تمرّ حتى يصير استعمال الكُتَّاب في عصرنا هذا قاعدةً يُجرى عليها.» اه

وكما انني لم ارَ احدًا قد اجاب على هـذا السؤال فاحببتُ ان أُجيب عنهُ بلسان المشرق الزاهر تعميماً للفائدة فاقول:

ينحصر هذا الكلام في سؤالين او قضيتين: ١ً ما هي المدة الشرعيَّة اللازمة ليُتَّخذ قول الكاتب حُجَّة لغويَّة يؤخذ بها؟ ٢ً هل يجوز لنا ان نأخذ مآخذ بعض الكتَّاب النوابغ من المحدثين ونحذو حذوهم في ما خالفوا بهِ المتقدمين؟ فأُجيب:

١ً ما هي المدة الشرعيَّة ليُتَّخذ كلام الكاتب حُجَّةً يؤخذ بها؟

ليس من مدَّة شرعيةٍ معيَّنـةٍ تُخرج الكاتب من عالم الخمول الى عالم الاحتجاج بكلامهِ بل اللازم في مثل هذا الصـدد ان يكون المتكلم «فصيح الكلام متعمّدًا إيَّاهُ موثوقًا بعربيَّتهِ» فان اختلَّ هذا الشرط بشيء منهُ لم يَجُز اتباع الكاتب او تأثُّرهُ في شيء من كلامهِ ولو كان «من اهل الجاهليَّة». وهذه القاعدة العامَّة تُستَخلَصُ من ائمة العرب الذين دوَّنوا اللغة في صدر الاسلام اذ انَّهم لمَّا همُّوا باثبات قواعد النحو واللغة لم يحتجُّوا بشيء من اهل الجاهليَّة ممَّن خالفوا قواعد اللغة الفُصحى. قال السيوطي في كتاب الاقتراح (ص ٢٢ من طبعة دائرة المعارف النظاميَّة في حيدرآباد) ما نصهُ:

واما كلام العرب فيُحتجّ منهُ ما ثبت عن الفصحاء الموثوق بعربيَّتهم. قال ابو نصر الفارابي في اوَّل كتابهِ المسمَّى «بالالفاظ والحروف»: كانت قُرَيش اجود العرب انتقـادًا للافصح من الالفاظ واسهلها على اللسان عند النطق واحسنها مسموعًا وأبْينها ابانةً عمَّا في النفس. والذين عنهم نُقلت اللغة العربية وبهم اقتُدي وعنهم أُخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم «قيس وتميم واسد» فان هؤلاء هم الذين عنهم اكثر ما أُخذ ومعظمهُ وعليهم اتُّكل في الغريب وفي الاعراب والتصريف ثمَّ «هذَيل وبعض كنانة وبعض الطائيّين» ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم وبالجملة فانهُ لم يؤخذ عن حضريّ قط ولا عن سكَّان البراريّ ممَّن كان يسكن اطراف بلادهم التي تجاور سائر الامم الذين حولهم فانهُ لم يؤخذ لا من لخم ولا من جذام فانهم كانوا مجاورين لاهل مصر والقبط ولا من قضاعة ولا من غسَّان ولا من اياد فانَّهم كانوا مجاورين لاهل الشأم واكثرهم نصارى يقرأُون في صلاتهم بغير العربية. ولا من تغلب ولا النمر (١ فانهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونانيـة.

١) كذا وفي المزهر (١: ١٠٥) وقد ذكر هذا النصّ يقول «واليمن». (قلتُ) ورواية «النمر» اصحّ لانهم كانوا من سكَّان الجزيرة

ولا من بكر لانهم كانوا مجاورين للنبط والفُرس ولا من عبد القيس لانهم كانوا سكّان البحرين مخالطين للهند والفرس ولا من أزد عمان لمخالطتهم للهند والفرس ولا من اهل اليمن اصلًا لمخالطتهم للهند والحبشة ولولادة الحبشة فيهم ولا من بني حنيفة وسكّان اليمامة ولا من ثقيف وسكان الطائف لمخالطتهم تُجّار الامم المقيمين عندهم ولا من حاضرة الحجاز لان الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدأوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الامم وفسدت ألسنتهم ». اه

وبعكس ذلك فان الذين دوّنوا اللغة احتجُّوا بكلام معاصريهم ممّن توخّى الكلام الفصيح في ما يقولهُ. وقد فعل ذلك إمام النُّحاة سيبويهِ الشهير فانهُ قد احتجّ ببعض شعر بشّار بن بُرْد كما يتحقّقهُ كل من يطالع كتاب شيخ النحاة مع ان هذا الشاعر كان من مُعاصريهِ. قالهُ المرزباني وغيرهُ. (راجع كتاب الاقتراح ص ٣٢).

وقال ثعلب في اماليهِ: كان يونس يقول: حدّثني الثقة عن العرب فقيل لهُ: مَن الثِقَةُ. قال: ابو زَيد. قيل لهُ: فَلِمَ لا تُسَمّيهِ. قال: هو حيٌّ بَعْدُ فانا لا أُسَمّيهِ » (عن المزهر ١: ٧١)

وبهذا القدر كفاية في هذا الموضوع الاوّل اذ نستنتج ان ليس من مدّةٍ معيّنةٍ تُحدّد أستِتمامَ الكاتب بل ان ذلك متوقف على فصاحتهِ ليس ألّا

٣ هل يجوز لنا ان نأخذ مآخذ بعض الكتّاب النوابغ من المحدثين في ما خالفوا بهِ المتقدمين

قلتُ: امّا ان يكون خلافُ المحدثين هذا في الالفاظ او المفردات * وإمّا في التعبير * وامّا في التركيب *

١ فاذا كانت مخالفة المحدثين للاولين في (المفردات) فقد اجاب عن ذلك ابن جِنّي في كتاب الخصائص حيث قال:

« فان كان فردًا بمعنى ان المتكلم بهِ من العرب واحد ويخالف ما عليهِ الجمهور فيُنظَر في حال هذا المنفرد بهِ فان كان فصيحًا في الجميع ما عدا ذلك القدر الذي انفرد بهِ وكان ما اوردهُ ممّا يقبلهُ القياس الّا انهُ لم يُروَ بهِ استعمال ألّا من جهة ذلك الانسان فان الأولى في ذلك ان يُحسَن الظنُّ بهِ ولا يحمل على فسادهِ (قال) فان قيل: فمن اين ذلك وليس يجوز ان يرتجل لغةً لنفسهِ. قيل: قد يمكن ان يكون ذلك وقع اليهِ من لغة قديمة طال عهدُها وعفا رسمها ». اه بحرفهِ. ثم قال: « [وعليهِ فـ] ينبغي ان يستوحش من الاخذ عن كل واحدٍ الى ان تقوى لغتُهُ وتشيع فصاحتهُ » اه

امّا اذا كان ما تفرّد بهِ المتكلم لم يُسمع من غيرهِ لا ما يوافقهُ ولا ما يُخالفهُ فقد قال ابن جِنّي في هذا الخصوص:

والقول فيهِ انهُ يجب قبولهُ اذا ثبتت فصاحتهُ لانهُ اما ان يكون شيئاً اخذهُ عمَّن نطق بهِ بلغة قديمة لم يشارك في سماع ذلك منهُ على حدّ ما قلناهُ في من خالف الجماعة وهو فصيح . او شيئاً ارتجلهُ . فان الاعرابيَ اذا قويت فصاحتهُ وسَمَت طبيعتهُ تصرَّف وارتجل ما لم يُسبَق اليهِ . فقد حُكي عن رُؤبة وابيهِ انهما كانا يرتجلان الفاظاً لم يسمَعاها ولا سُبقا اليها . « اما لو جاء عن متهم او من لم ترقَ بهِ فصاحتهُ ولا سبقت الى الانفس ثقتهُ فانهُ يُرَد ولا يُقبَل » . فان ورد عن بعضهم شيء يدفعهُ كلام العرب ويأباهُ القياس على كلامها فانهُ لا يقنع في قبولهِ ان يُسمَع من الواحد ولا من العدَّة القليلة « الَّا ان يكثر من ينطق بهِ منهم فان كثر قائلوهُ الَّا انهُ مع هذا ضعيف الوجه في القياس فمجازهُ وجهان : احدهما : ان يكون من نطق بهِ لم يُحكم قياسهُ . والآخر : ان تكونَ انتَ قصَّرت عن استدراك وجه صحتهِ ويُحتَمل ان يكون سمعهُ من غيرهِ ممَّن ليس فصيحاً وكثر استماعهُ لهُ فسرى في كلامهِ الَّا ان ذلك قلَّما يقع » . فان الاعرابي الفصيح اذا عُدل بهِ عن لغتهِ الفصيحة الى اخرى سقيمة عافها ولم يعبأ بها . « فالاقوى ان يقبل ممَّن شُهرت فصاحتهُ ما يوردهُ ويحمل امرهُ على ما عرف من حالهِ لا على ما عسى ان يحتمل » كما ان على القاضي قبول شهادة من ظهرت عدالتهُ وان كان يجوز كذبهُ في الباطن اذ لو لم يؤخذ بها لادَّى الى ترك الفصيح بالشك وسقوط كل اللغات . (انتهى كلامهُ الشائق)

واعلم ان هذه القواعد البديعة لا تُطلق على كلام الجاهليين فقط او على المخضرمين بل على المولَّدين ايضاً والمحدثين والمعاصرين من الادباء والكتَّاب واللغويين . والدليل على ذلك انَّنا نرى كثيرين من اهل الجاهلية لا يُعتدُّ بكلامهم ولا يُتَّخذ حجَّة . ومنهم من يُتَّخذ حجَّة في مواضع وتُدفع حجتهُ في مواطن أُخرى . ومنهم من يُتَّخذُ كلامهُ حجَّة على كل حال . وما سبب كل ذلك الَّا موافقة كلام اولئك الشعراء والادباء او المتكلمين للقواعد العربيَّة وثقة الناس بفصاحتهم وصدق لغتهم الخالصة ولهجتهم البَحْتَة او بالعكس . وادعاماً لكلامنا هذا ننقل بعض الشواهد عن الائمة العظام . قال الاصبهاني في كتاب الاغاني (٢ : ١٨) :

[كان عديّ] شاعرًا فصيحاً من شعراء الجاهلية وكان نصرانياً . . . وليس ممَّن يُعَدّ في الفُحول هو قرويّ وقد اخذوا عليهِ في اشياء عيب فيها . وكان الاصمعي وابو عبيدة يقولان عدي ابن زيد في الشعراء بمنزلة سُهيل في النجوم يُعارضُها ولا يجري معها مجراها وكذلك عندهم أُميَّة ابن ابي الصلت . ومثلهُ كان عندهم من الاسلاميين الكُمَيت والطِرِمَّاح . قال العجاج : كانا يسألاني عن الغريب فأُخبرهما بهِ ثم اراهُ في شعرهما وقد وضعاهُ في غير مواضعهِ . فقيل لهُ : ولمَ ذاك . قال : لانهما قرويَّان يصفان ما لم يَرَيا فيضعانهِ في غير موضعهِ وانا بدوي اصف ما رأيت فاضعهُ في مواضعهِ . وكذلك عندهم عديّ وأميَّة (انتهى)

ونستنتج من هذا الكلام ما عدا الشهادة المؤيدة لدعوانا النتائج الآتية : ١ ان

لغة اهل القرى او الحضر من العرب كانت تختلف عن لغة اهل البادية. ٢ً لم يكن كل عربيّ يفهم جميع الالفاظ العربيّة لانّ لسان البدوي كان يختلف عن لسان الحضريّ لما في حاجة هذا الى غير ما في حاجة ذاك. ٣ً انهُ وُجد الفاظ عند الحضر لم يكن لها وجود عند اهل البادية وبالعكس. ٤ً قد يستعمل الشاعر الحضريّ الفاظاً لا يضعها في مواضعها الحقيقية الخ

وقال صاحب الاغاني في ابي العتاهية (٣:١٤٥) نقلاً عن الاصمعيّ: « شعر ابي العتاهية كساحةِ الملوك يقع فيها الجوهر والذهب والتراب والخزف والنوى ». وقال عنهُ ايضاً (٣:١٢٦): « وقيل كان غزير البحر لطيف المعاني سهل الالفاظ كثير الافتنان قليل التكلُّف الّا انهُ كثير السـاقط المرذول مع ذلك ». اه. وعليهِ فلا يمكن ان يُستشهد بكلام ابي العتاهيـة الّا بما طابق الاصول العربيّة الفصيحة الصحيحة. والّا فساقط كلامهِ ومرذولهُ يبقى كذلك ما شاء الله ولا يُغيّرُ منـهُ شيئاً مرُّ الزمان ولا كرّ الاعوام

وقال ايضاً في الاغاني (١٥:٩٧): « نُقل عن الاصمعيّ قال: كانت الرواة لا تروي شعر ابي دُؤاد (الايادي) ولا عدي بن زَيد لمخالفتهما مذاهب الشعراء ». اه. واذ قد سمعتَ بعض الشهادات عن الجاهليين واحد فصحاء المولّدين اسمع الآن ما قيل عن بعض الائمة المتأخرين. من ذلك ما قال في تاج العروس في آخر مستدرك مادة خ ر ط ما نصهُ:

(فائدة) قال شيخنا: استعمل الناس كثيراً « الانخراط » بمعنى « الانتظام والدخول » كانخرط في السلك اذا انتظم فيهِ. وقد وقع في كلام الفصحاء الثقات من علماء اللسان كالسكّاكي والزمخشري واضراجهما ولا يكاد يوجد في كلام العرب ونصوص اهل اللغة ما يؤيدهُ. ثم رأيت الشهاب وقع لهُ مثل هذا. ولكنهُ رحمهُ الله وقع في جامع اللغة لابن عبّاد على قولهم: « خرطتُ الجواهرَ: جمعتُها في الخريطة. قال: فعلمتُ انّهم تجوّزوا بهِ عن جعلهِ في العقد. الى آخر ما ابداهُ ونقلهُ في شرح الشفاء وعناية القاضي. وهو كلام لا محيد عنهُ ». انتهى

قلتُ: ومن ذلك نستنتج: ١ً ان كلام الفصحاء الثقات من المتأخرين كلهُ حُجّة. ٢ً انهُ يوجد في كلام مثل هؤلاء الائمة الفاظ لا وجود لها في كلام العرب الاقدمين ولا في نصوص اهل اللغة وعليهِ فكتب اللغة لا تحوي جميع الفاظ الثقات. ٣ً اذا شاءت اللفظة التي لا وجود لها عند الاقدمين عن لسان اهل الثقات تُلتقَط التقـاط الدرّة

وتخرط في خوانط متون اللغة ولا يُظَنُّ سوءًا في من أستعملها ولا يُخطَّأ بهـا كما توهَّم ذلك بعض الكتبة من المتأخرين زمانًا وانتقادًا

وقد جاء في التاج ايضًا ردًّا على ابن حجر المكيّ لانتقادٍ لهُ على صاحب القاموس في خصوص كلمة « التعزير » ما نصهُ :

قلتُ : والعجب منهم (اي اللغويين) كيف سكتوا على قول الشيخ ابن حجر وهو : « فكيف ينسبُ (اي صاحب القاموس) لاهل اللغة الجاهلين بذلك من اصلهِ » . فانهُ ان اراد باهل اللغـة الائمة الكبار كالخليـل والكسائي وثعلب وابي زيد والشيبانيّ واضرابهم فلم يثبت ذلك عنهم خلط الحقائق اصلًا كما هو معلوم عند من طالع كتاب العين والنوادر والفصيح وشروحهُ وغيرها . وان اراد جمعَ من بعدهم كالجوهريّ والفارابيّ والازهري وابن سيدة والصاغاني فانهم ذكروا الحقائق الشرعية المحتاج اليها وميّزوها من الحقائق اللغويّة امّا بايضاحٍ فكالجوهريّ في الصحاح او باشارة كبيـان العلّة التي تميز بينهما وتارةً بيان المأخذ والقيد كابن سيدة في المحكم والمخصّص . وابن جنيّ في سرّ الصناعة وابن رشيق في العمدة والزمخشري في الكشّاف وكفاك بواحدٍ منهم حجّـةً للمُصَنِّف فيما رَوَى ونَقَل » (انتهى المقصود)

فانظر حرسك الله الى هذه العبارة الاخيرة فان كلام كلّ واحدٍ من هؤلاء المتأخرين يكفي وحدهُ لان يكون حجّة في نفسهِ مع انّهم كلهم ليسوا من اهل الجاهلية ولا من ساكني الخيم . وما سبب ذلك الّا فصاحة لسانهم وخلوص لغتهم . وعليهِ فان الشرط الذي اشترطهُ العرب في صدر الاسلام عند تدوينهم اللغة بطل اليوم لما سبق من تقييد اوابدها واثبات قواعدها وجَمْع شواردها حتى لم يُعَد يُخاف على صحّة سلامتهـا كما كان يُخاف عليها باديء بدء وذلك عملًا بالمبدإ الفلسفي وهو : « اذا بطلت العلّة بطـل المعلول » وعليهِ فلا يجوز اليوم اخذ العربيّـة عن اهل الوَبَر بل عن اهل المدَر والحضر من الثقات لانقلاب الاحوال

٢ وان كانت مخالفة المتأخرين للاولين في (التعبير) وذلك في ما ينقلونهُ عن الاعاجم من الاساليب المعنويّة والمجازات او التشبيهات المتولّدة من نوعيّـة مدنيّتهم وحضارتهم او في استعمالهم مجازاتٍ حديثةً متخذةً من حاجات الالفة العصريّة العربيّة الحاليّة فلا بأس بل « لا بُدَّ » من اتخاذها وادخالها اللغـة العربيّة اذا كان « سبكها وتركيبها » مطابقًا للاصول النحويّة العربيّة وعبارتها تؤدّي المعنى المطلوب بدون تكلُّف او تعمُّل . وسبب ذلك هو ان الكاتب « مصوّر » الّا انهُ مصوّر افكار ومعـان لا

مصوّر اشياء وغوانٍ ومبانٍ. وان من فرائض المصوّر الحاذق الماهر في صناعتهِ ان يُفرغ كنانة وسعهِ في ان يصوّر ما يراهُ تصويرًا يقرّبهُ من الحقيقة ويُمثّل الطبيعة التي يُريد رسمها احسن تمثيل. ومن ثم فكلّما شابهت الصورةُ الاصلَ المنقول عظمت قيمتها وارتفعت وفاخر الناس بها وبمحاسنها وازداد اعتبار المصوّر في عيون الاقوام واعتُرف لهُ بمهارتهِ وحسن صناعتهِ واهلية شهرتهِ بها

وعليهِ فاذا كان الكاتب مُصوّر افكار فكيف يجوز لهُ ان يصوّر افكارًا ليست من زمانهِ ؟ او كيف يصوّر افكار هذا اليوم وينسبها الى امس او بالعكس؟ أفلا يُشبهُ من يفعل هذا الفعل مؤرّخًا انتُدِب لكتابة وقائع يومهِ فيكتب لنا وقائع جرت قبل مئات من السنين يذكر فيها اشخاصًا بازياء واسلحةٍ وآلاتٍ وحيواناتٍ ووسائط حربيَّة هي اليوم في زوايا النسيان وهو مع ذلك ينسبها الى وقائع هذه الايّام وما ذلك الّا ليتّخذ نفس عبارات او تصاوير او تشابيه الاقدمين ليُقال عنهُ انهُ يجيد الكتابة في مثل هذا الموضوع. أفلا يحقّ ان يقال عن مثل هذا الكاتب انهُ كاذب وان صناعة الانشاء ليست من صناعتهِ وان كلامهُ لا يُتّخذ دليلًا على حالة عصرهِ من ايّ وجهٍ كان وانهُ من الكتبة المتأخرين عقلًا ودرايةً ولغةً الخ وانهُ من عداد الذين لا يستطيعون مجاراة سائر فحول العصر في ميدان البلاغة والانشاء ؟ وانهُ وانهُ وانهُ كل ما تُريد...

هذا واذا امعنتَ في البحث عن حالة الانشاء قبل الاسلام وبعدهُ وتدبّرت الاستعارات والتشبيهات والمجازات التي كانت تُستعمل في حالة بداوة العرب وقابلتها بما كان من بابها في أبان حضارتهم وزهوها رايتُ الفرق بينهما عظيماً على حدّ ما يرى بين الثرى والثريّا. هذا ولا يحقّ لك ان تدّعي بان كلام المبرّزين من الاقدمين ابلغ من المتأخرين فهذه دعوى فارغة يُعيدها الواحدُ بعد الآخر من الادباء بدون تدبُّر ويتناقلها الخلف عن السلف بدون تبصُّر ولو يتأملون هذه العقيرة لخجلوا من مداومتهم على تغنّيهم بها

طالع مثلًا المعلقات او السموط ثم انتقل شيئاً فشيئاً من هذه الى المُجمهرات الى المنتقيات الى المذهبات الى المرائي الى المشوبات الى الملحمات حتى تصل الى اشعار المتنبّي والصاحب ابن عباد الى كلام ابن خلدون وابن الاثير الخ الخ ترَ انك كلّما قاربت زمن الاسلام واوغلت فيهِ وزادت حضارة العرب رقّت حاشية الشعر وتدقّقت معانيه

الساحرة للالباب وتسلسلت مبانيهِ حتى تكاد تذوب لطافةً — ترَ بعد المقابلة بين كلام الفريقين ان في الفاظ الاقدمين خشونةً وفظاظةً وفي تشابيههم ما يُشتمُّ منهـا رائحة البَعر والبُعران ولا يمكنك ان تخرج عن بعض امور يعيدها الشاعر بعد الشاعر من جميع القبائل حتى اصبحت عندهم بمنزلة سدّ ياجوج وماجوج لا يُمكن خرقـهُ او مجازتهُ ولا يمكن هدمهُ او تحويلهُ عن موقعهِ. وامَّا اذا اجلتَ النظر في شعر الحضر ترى فيهِ المباني والمعاني قد دقت أيَّةَ دقَّة حتى انك لا تكاد تسمعها الَّا وقد بلغت اقصى الجنـان واخفى زاوية من زوايا النفس

والخلاصة ان نسبة كلام الاقدمين الى كلام المتأخرين كنسبة كلام الطفل الى كلام الكهل او كنسبة نُطق الجاهل الى نطق العاقل او ان شئتَ فقل ان نسبة كلام اولئك الى كلام هؤلاء كنسبة سيفٍ خشيبٍ كُهام الى سيف صقيل حُسام. غير ان كلامنا هذا لا يجد آذاناً صاغية وقلوباً واعية ما لم يُدعَم بشهادة احد الائمة. قال ابن خلدون امام المنتقدين في مقدمتهِ (ص ٥٢٩ من الطبعة البيروتية الغير المشكلة):

ان كلام الاسلاميين من العرب اعلى طبقةً في البلاغة واذواقها من كلام الجاهليـة في منثورهم ومنظومهم فانَّا نجد شعر حسَّان بن ثابت وعمر بن ابي ربيعـة والحطيئة وجرير والفرزدق ونصيب وغيلان ذي الرمة والاحوص وبشَّار ثم كلام السلف من العرب في الدولة الاموية وصـدرًا من الدولة العباسية في خطبهم وترسُّلهم ومحاوراتهم للملوك ارفع طبقة في البلاغة من شعر النابغة وعنترة وابن كلثوم وزهير وعلقمة بن عبدة وطرفة بن العبد ومن كلام الجاهلية في منثورهم ومحاوراتهم والطبع السليم والذوق الصحيح شاهدان بذلك للناقد البصير بالبلاغة والسبب في ذلك ان هؤلاء الذين ادركوا الاسلام سمعوا الطبقة العالية من الكلام . . . لكونهـا ولجت في قلوبهم ونشأت على اساليبها نفوسهم فنهضت طباعهم وارتقت ملَكاتهم في البلاغة على ملكات من قبلهم من اهل الجاهلية ممَّن لم يسمع هذه الطبقة ولا نشأ عليهـا فكان كلامهم في نظمهم ونثرهم احسن ديباجة واصفى رونقاً من ارائك وارصف مبنًى واعدل تثقيفاً بما استفادوهُ من الكلام العالي الطبقة. وتأمَّل ذلك يشهد لك به ذوقك ان كنت من اهل الذوق والتبصُّر بالبلاغة. (انتهى)

وازيد على ما تقدَّم في سبب سموّ بلاغة اولئك الاسلاميين على كلام اهـل الجاهلية انهم ارتقوا معارج الحضارة فرقَّت طباعهم وتخيُّلاتهم ومحضت اذواقهم ودقَّ بصرُهم في معرفة انتقاء الالفاظ وانتقادها فجاء كلامهم وعليـهِ مسحةٌ من الرقَّة والطلاوة وتتضوَّع منهُ طيوب المدنيَّة والانس ممَّا لم يكن للجاهلية بها عهد. وعليهِ فاذا كان الامر على هذه الصورة اي ان ارتقاء طبقة الكلام يكون بارتقاء حضارة

صاحبهِ فما احرى بنا ان نُدخل التعابير والتصاوير الأنيقة المحدثة المتولّدة من الحضارة الحديثة او من الاساليب الاعجميَّة. اذ قد سبقْنا الى مثل هذا العمل العربُ في ابان حضارتهم عند مخالطتهم الامم الاعجمية ونقل كتبهم الى اللغة العربية. لا بل وقد دسَّ صاحب القاموس تعابير دخيلة في كتابهِ بحيث يصعب علينا اليوم معرفتها وتمييزها من التعابير والتشابيه العربية المحضة. قال في التاج:

ظمئَ اليهِ اي الى لقائهِ. اشتاق: واصلهُ من معنى العطش. وفي الاساس: ومن المجاز انا ظمآن الى لقائك: اي مشتاق. ونبَّه عليهِ الراغب وهو مستعمل في كلامهم كثيرًا. قال شيخُنا: « والمصنِّف كثيرًا ما يستعمل المجازات الغير المعروفة للعرب. ولا بُدَّ ان اغفل التنبيه على مثل هذا ». قلتُ: وهو كذلك. ولكن ما رأيناهُ نبَّه الّا على الاقلّ من القليل كما ستقف عليهِ (انتهى كلام التاج)

قال كاتب هذه السطور: وهـذا النوع من المجاز مأخوذ من العبرانيين ولغتهم وكثيرًا ما نرى مثلهُ في التنزيل العزيز. قال صاحب الزبور: « اللهمَّ انت الهي واليك ابتكر اليك ظمِئَتْ نفسي » وشَحُبَ جسمي (مزمور ٦٢: ٢) وقال: « ظمِئَت نفسي » الى الله الى الاله الحيّ (مزمور ٤١: ٣). الى آخر ما هناك من الشواهد الكثيرة. وقد دخل هذا التعبير في لغة العرب على ايدي نصاراها في غابر الزمان كما ادخلوا كثيرًا من ألفاظ وتعابير الإرَميين والعبريين

هذا وهناك تعابير ومجازات واصطلاحات كثيرة مأخوذة من اللغة الفارسيَّة واليونانيَّة ممَّا يكون موضوعاً لمقالةٍ قائمة برأسها. ولهذا نقف عند هذا الحدّ من هـذا الموضوع مجتزئين بالبرض عن العدّ وبالقُل عن الجلّ

٣ واماَّ اذا كانت مخالفة المتأخرين للأوَّلين في (التركيب) فهذه بدعةٌ يجب للحال نبذها وتشنيع اصحابها وضربهم عن اتيان مثل تلك التراكيب التي تُنافي كل المنافاة مزية لغة العرب وتفسدها كل الفساد وتجرّها الى مهاوي الرطانة وتدفع الناطقين بها الى الطُمنطُمانيَّة والارتضاخ. ويكون ذلك مثـل تقديم المضاف اليهِ على المضاف كقولك: « زَيدٍ كِتابٌ » وانت تُريد: « كتابُ زَيدٍ » او ان تتصرَّف بالمبتدإ والخبر والنعت والمنعوت على حدّ ما تصرَّف بها الفرزدق في بيتهِ المشهور:

وما مثلهُ في الناس الّا مملَّكًا ابو امهِ حيّ ابوهُ يقاربهُ (١

١) قال ابن عيسى الشَنْتَمَرِيّ في كتابهِ تحصيل عين الذهب: « اراد وما مثلهُ في الناس حيّ

او ان تفعل كما قال الآخر:

فاصبحتْ بعدَ خطَّ بَهْجَتِها كأنَّ قفرًا رُسومَها قَلَما (١

او كما انشد آخر:

فقد والشكُّ بيِّن لي عناءٌ بوشك فراقهم صُرَدٌ يصيح (٢

واقبح منهُ قول الآخر:

لها مُقْلَتا حوراء ظلَّ خميلهُ من الوحش ما تنفكُّ ترعى عرارها (٣

ومثل هذا التقديم والتأخير تجيزهُ اللغات اللاتينيَّة واليونانيَّة والتركيَّة وبعض الاحيان الفارسيَّة ايضاً الَّا ان اللغة العربيَّة تنبو عنهُ كلَّ النبوّ وتمجُّهُ مجَّ الأُجاج. وعليهِ فلا يجوز قبول مثل هذا التركيب وان سبقنا اليهِ بعض الاقدمين من العرب ممَّن جاورا الاعاجم. ومما تقدَّم نستنتج هذه النتيجة وهي:

(النتيجة) جواباً على سؤال احد قرَّاء المقتطف تقول: ١ً يجوز لنا ان نحذو حذو المحدثين «من النوابغ الفصحاء الموثوق بعربيتهم» في ما خالفوا المتقدّمين. وذلك فقط في المفردات والتعابير او التصاوير ولا يجوز ذلك في التراكيب المنقولة عن الاعاجم والدخلاء المخالفة لاصول العربيَّة ولتراكيب الاقدمين. ٢ً لا بأس من استتمام الكاتب في حياتهِ او بعدها غاضًّا النظر عن ديانتهِ فقد قال صاحب الاقتراح: «أُعتُمِدَ في العربية على اشعار العرب وهم كفَّار لبعد التدليس فيها كما اعتُمد في الطبّ وهو في الاصل مأخوذ عن قوم كفَّار». ولذا ترى في شواهدهم مزيجاً من شعر وثنيّي العرب ونصاراهم ويهودهم ومسلميهم

يقاربهُ الَّا مملَّكاً ابو أمّ هذا المملَّك ابو هذا الممدوح واراد بالمملَّك الخليفة هشام بن عبد الملك وخالهُ الذي ابوهُ ابو امهِ ابرهيم بن هشام المخزوميّ. وتلخيص معنى البيت: ما مثل هذا الممدوح في الناس الَّا الخليفة الذي هو ابن اختهِ. وهذا المعنى مع سخفهِ امثل مما عُبِّر بهِ عنهُ من لفظهِ لانهُ فرق بين النعت والمنعوت في قولهِ حيّ يقاربهُ بخبر المبتدإ وهو قولهُ ابوهُ وفرق بين المبتدإ الذي هو ابو امهِ وبين خبره بقولهِ: حيّ. فاحال اللفظ حتى عميَ المعنى السخيف فازداد قبحاً الى سخفهِ. اه

١) واراد: فاصبحت بعد بهجتها قفرًا كأنَّ قلما خطَّ رسومها

٢) واراد: فقد بيِّن لي صرد يصيح بوشك فراقهم والشك عَناء

٣) اراد: لها مُقْلَتا حوراء من الوحش ما تنفكُّ ترعى خميلةً

٣ مدَّة الزمان غير مشروطةٍ في اتخاذ الكاتب حجَّةً ولذا يبقى كلام الاشموني «اشمونيًّا» اي فصيحاً يُهدى بهِ ويُقتدى. ويبقى كلام الجبرتيّ «جبرتيًّا» اي ركيكاً وان مرَّت عليهِ القرون والعصور ولذا لا يُعتدُّ بهِ ولا يُستشهد بهِ

وعليهِ فان ما احتجَّ بهِ حضرة الاستاذ الشرتوني من اقوال متأخري الفصحاء والبلغاء كالاشمونيّ وابن الاثير واضرابهما موافق كلّ الموافقة لشروط الاخذ عنهم كما تقدَّم. ومن ثم فلا باس من ان نحذو حذوهم. وزد على ما تقدَّم ان جماعة من ائمة اللغويين قد سبقوا حضرة العلامة الشرتوني في عملهِ هذا واستشهدوا بكلام «فصحاء المولَّدين» لاثبات الفاظ وعبارات لم تُنقل عن الاقدمين. ولابن عابدين الدمشقيّ كتاب ترجمهُ بـ «الفوائد العجيبة. في اعراب كلمات الغريبة» وهو كلهُ عبارة عن اوضاع من هذا النحو وقد استلَّها من كُتُب فصحاء المولدين وائمتهم كصاحب الصحاح والفيروزابادي والزمخشري وابن هشام والجلال المحلي. وغيرهم. وكذا فعل الثعالبيّ في كتابهِ: «ثمار القلوب في المضاف والمنسوب» وابن عيسى الهمذاني في كتابهِ «الالفاظ الكتابية» الى غير ذلك من مثل هذه الكتب فان «اغلب» ما ورد فيها أو «كلهُ» لا يُوجد في كتاب الاقدمين وتعابيرهم فكيف الامر اذن؟ هل نعدُّ كلَّ هؤلاء جهلاء ونحن العلماء؟ — فهذا كلام لا يقبلهُ سليم العقل ولا سليم الذوق وعليهِ:

فتَشبَّهوا ان لم تكونوا مثلهم ان التشبُّهَ بالكرام فُلاحُ

بعض اديار مصر القديمة

لحضرة الاب ميخائيل جوليان اليسوعي

٣ دير ابي فانس

سرنا من المنيا لزيارة هذا الدير ووِجْهتُهُ الجنوب فنزلنا من السكَّة الحديديَّة عند المحطة الثالثة وهي إتليدم قرية تُرى على تُلة من الاطلال والرسوم الداثرة علوُّها نحو عشرة امتار الى خمسة عشر متراً. واسمها كما ترى اعجميّ لا يُردّ الى اصل ساميّ وارتفاع اتليدم فوق هذه الاخربة دليل بيّن على انَّ ثمَّت كانت قديمًا بلدةً. وقد بقي